العوائد اللبنانية

لحضرة الاب يوسف نائي احد اساتذة مدرستنا الكليّة

قد استحدث الاوربيّون في عصرنا هذا علومًا شتّى لم يعجم عودَها من سبقهم اللهمّ الّا بعض الافراد. ومن جملتها علم معرفة أخلاق الامم وعوائد البلاد استرسلوا في البحث عنها وانشأوا لها مجلّات عديدة جعلوها مضمارًا تخوضُ فيهِ جياد اقلام الكتبة المفلقين. ورأينا منهم قومًا دخلوا بلادنا فاستغربوا احوال سكّانها وعوائد اهلها فصاروا ينقّرون عنها تنقيرًا قاصيًا ويسطرون في وصفها الاساطير المطوّلة زانوا بها صفحات جرائدهم واودعوها في بطون تواريخهم

وقد قرأنا من هذه التآليف قسمًا فرأينا انّ اصحابها هداهم الله ربّما جاروا عن سبيل الحقّ فنسبوا لاهل هذه البلاد ما هم بَراء عنهُ او اطلقوا على العامّة ما لم يصحّ الّا في بعض الافراد. فشدًّا لهذا الخلل قد تصدّينا للتنقيب عن عوائد مواطنينا انصف منها ما عهدناهُ ورأيناهُ وأي العيان

ولا ريب في انّ الفرنج يحبّون الاطلاع على هَدْينا وطريقتنا لما خصّهم الله بهِ من التحنّي في امور الغرباء لاسيما ان حاول وصفها احد ابناء الوطن. ولا اخال انّ اهل بلادنا يسأمون ذكر ما ألفوهُ منذ نعومة اظفارهم وورثوهُ من آبائهم. وخصوصًا اذا عرفوا انّ لبعض هذه العوائد شأنًا خطيرًا او تاريخًا قديمًا اثيرًا. وحدانا الى هذا المشروع باعث آخر وهو اننا نرى في هذه الايّام اهل الشرق يتهافتون على التخلّق باخلاق الاجانب وسلوك مناهجهم ولا تهافُت الظباء على مناهل المياه اذا ما جهدها الظماء. فلا شكّ ان كثيرًا من هذه العوائد سوف تذهب درج الرياح وتدخل عمّا قليل في خبر كان فلا يبقى اذ ذاك للخلف لمعرفة احوال السلف الّا التنقيب عنها في الكتب المسطورة

وقد جعلتُ هذه الابحاث فصولًا قصيرة يشتمل كلٌّ منها على بعض الفوائد في موضوع خاصّ ووصف حالةٍ من احوالنا

ولادة الاطفال

قد دُقّت في هذه الايام للعالم المسيحي بشائر الافراح ذكرًا بمولد ابن الله المتأنس

فلا بأس ان نشرع بوصف العوائد الجارية عندنا حين ولادة الاطفال وقد شاء الربّ العليّ ان يولد طفلًا صغيرًا مثلهم ويُقمَّط بقُمُطهم ويُضجع في مذودٍ يُشبه مهدهم. فسبحانهُ من ربّ قدير تعنو لهُ الملائكة سجّدًا وهو في سرير

اذا ولد الطفل الصغير تُسرع اليهِ القابلة والعامّة يدعونها الداية (١ فتضمّخ جسدهُ بماء الورد والرياحين ثم تلفّهُ بقُمُطهِ ولا تلبث ان تخرج بهِ خارج المنزل ليرى النور ويستنشق الهواء. ولعلّ هذه العادة تشمل كثيرًا من الشعوب والدليل على ذلك انّ الولادة عندهم يكنى عنها بالابراز الى النور (edere in lucem) والميلاد برؤية النور (videre lucem). ومن خرافات بعض نساء لبنان زعمهم بأنّ الطفل اذا لم يُخرَج بهِ على النمط المذكور ينزل بهِ نازلةٌ او تحترمهُ المنون

ونرى في صنيع القابلة رمزًا كأني بها ولسان حالها يقول: « ألا انظر ايها الطفل الحبيب الى الدنيا واحزانها فاني أُطلعك عليها اوّل مرّة كما تُعرَض السفينة بعد نجازها على ثبج البحر المتلاطم بالامواج فتقضي فيهِ جاريةً مجراها ومنشاها زمنًا يسيرًا الى ان تُحطّم وتبتلعها اللجج ». وكان أولى بالقابلة ان تتّجه بالصبي نحو مدفنٍ لانّ المهد يذكّر اللحد والولادة انما هي رسول الموت. » ولذلك نرى الصغير يستهلّ بكاء ولا يضحك سرورًا كأنّهُ يشعر مذ ذاك بما يحلّ بهِ يومًا من الشقاء والنكال (٢

وقد روي عن الرومان واليونان ما يُشبهُ عادة اهل لبنان بعض الشبه فكان يجتمع اعضاء العائلة والاحباب والاقارب في اليوم التاسع او العاشر لولادة الطفل فتطوف احدى النساء بالمولود حول النار كأنها تُعلن بذلك انّ الصبيّ صار عضوًا من العائلة يستنير بموقدها ويعيش بعيشتها (٣

وبعد عرض الولد للنور تعود بهِ القابلة فتقدّمهُ لابيهِ ليفرح ويُسرّ بهِ سرورًا هو واصحابهُ. واذا كان الوالد غائبًا فيبادر الحاضرون ويبعثون اليهِ البشائر ومن حمل هذه

---

١) الداية لفظة فارسيّة معناها المُرضع والظئر وقد شاعت بين العامّة بمعنى القابلة (sage-femme)

٢) هذا كلام القديس اوغسطينوس معلم الكنيسة (راجع اعمالهُ الجزء ١٢ ص ١٠٠ والجزء ١٩ ص ٤٢٥)

٣) راجع F. de Coulange: *Cité antique* l. II, c. 3

البشرى لاب الطفل او لاقاربه الادنين يجازى خيرًا. وعند ميلاد المسيح تولّى الملائكة أنفسهم نقل هذه البشارة للرعاة (لوقا ٢ : ١٠). والى هذه العادة يُشير النبيّ بقوله: ملعون الانسان الذي بشّر ابي قائلا قد وُلد لك ابن ذكّر وفرّحهُ تفريحًا (ارميا ٢٠ : ١٥)

وكانت تقدمة المولود لوالده عادةً عند الرومان فكانوا يضعون الطفل امام والده يأتمر في موته او حياته فان رجده وسيمًا قسيمًا نهض به عن الحضيض وقضى بحياته وهو معنى قولهم (puerum tollere vel suscipere). اما اذا استكشف منهُ لنقص او عيب يراهُ فيه فكان يعرض عنهُ فيُطرح المولود دون شفقة او يُقتل. تلك كانت سنة قوم أجلاف لم يستنيروا بعد بنور الايمان القويم ولم يعرفوا ثمن نفس فداها ابن الله بدمه سواء كانت في جسم صحيح البنية او في بدن سقيم

ومن العادات الجارية بين اهل لبنان عند الولادة ان يصنع اهل الصبي نوعًا من الحلواء يُدعى المغلي فيرسل الى الاقارب والاحباب. والمغلي عبارة عن أرز مسحوق يُغلى ويُخلط بسكر وجوز ولوز وما شاكل من الترابل (المكسّرات). وهو الطعام الذي يدعوهُ العرب الخُرْس يتّخذونهُ للولادة وكانوا يطعمونهُ النُفساء.

اما اولاد الاقارب والجيران فانهم يهرعون الى بيت المولود يطلبون « حلوانة الصبي » او « حلوّينتهُ »(١ وهي زبيب وقضامة (٢ وقمح مسلوق او فاكهة من الشمرالخ

ومنها ايضًا ان يصنع اهل الصبي وليمةً يجمعون فيها انواع المسرّات فيدعون للمولود ويطلبون لاهله الحياة الطويلة ليفرحوا به وباولاد اولاده. وتسمّى هذه الوليمة وَقمةً (٣ ويدعونها ايضًا لقمة الولادة او لقمة الخلاص

هذا ما يفعلهُ الوالدان وأسرة البيت ترحيبًا بولادة الطفل الصغير. اما الاصحاب

---

١) الحلوانة والحُلْوَيْنة عند العامّة كالحُلْوان وهو في الاصل اجرة الدلّال او المتكمّن اي الساحر ثمّ توسعت فيه العامّة فجعلوهُ بمعنى الهبة. ويرادفهُ عندهم « البخشيش » وهي كلمة فارسيّة. وتقول العامّة جذا المعنى « كوّفة خاطر ». وشاف خاطرهُ بشيء اي طيّب به قلبهُ واهداهُ اياهُ.

٢) القضامة الحمّص اليابس المشويّ على النار أُخذ من القَضْم وهو أكل الشيء اليابس باطراف الاسنان. والهُوَيسة عند العامّة حمّص اخضر يُشوى على النار فيؤكل

٣) الوقمة عند العامّة ما يؤكل بمرّة واحدة. والعرب تقول أكل الوقمة اي المرّة

فانهم اذا علموا بهذا الخبر السارّ تقاطروا الى بيت الوالدين ليقدّموا لهما التهاني ويشاركوهما بافراحهما. كما اخبر القديس لوقا (١ : ٥٨) عن يوحنا الصابغ انهُ لمّا وُلد سمع الجيران والاقارب بخبر أليصابات ففرحوا معها

والكنائس الشرقية جريًا على هذه العادة تحتفل في اليوم التابع لميلاد الرب عيدًا تدعوهُ عيد تهنئة العذراء بولادة المخلّص

ومن عوائد القادمين على اهل المولود للتهنئة ان يهدوهم هدايا على اختلاف طبقاتهم كالسكّر والأرزّ او البنّ او الدجاج اشارةً الى سرورهم ومساعدةً للعائلة التي تتكلّف في تلك الآونة مصاريف ونفقاتٍ خارقة العادة. ومنهم من يضع دراهم على طبق النقل حين يُقدَّم لهُ فيُدعى ذلك « تنقيطًا » يقولون: فلان نقّط الصبيّ اذا اهداهُ شيئًا من الدراهم. وهذه الهدايا عند الولادة اعتادها الشرقيون منذ زمن قديم وحسُنا ان نذكر هدايا المجوس لمّا اتوا بيت لحم ليسجدوا للطفل يسوع فأهدوهُ ذهبًا ولبانًا ومُرًّا (متى ٢ : ١١)

واذا دخل الوفود على الوالدين باركوا لهما بالطفل الجديد بهذه العبارات: « مبارك ما جاءكم ان شاء الله يعيش ويكون من اولاد السلامة ويُربّى بالدلال ونزى (نقشع) على رأسهِ الاخوة » ويقولون للامّ: « انتِ ولدتِ (جبتِ) وانت تُربّين (تربي) فالحمد لله على سلامتكِ ». ولا يرجع الزائرون الى بيوتهم الّا بعد شربهم القهوة وأكلهم « حلوانة الصبيّ » ويقدَّم لهم الشَّراب والعرق والحلويات وفي كثيرٍ من القرى يقدّمون لهم الزبيب والقضامة والقمح المسلوق « والقينار » وهو عبارة عن يانسون مغليّ بماء ممزوج بالدبس او السكّر ويضاف اليهِ حبّ الصنوبر

لكنّ هذه العادات الموصوفة آنفًا اكثر ما تجري في لبنان عند ولادة الصبيان. اما اذا ولدت (جابت) الامّ بنتًا فتراها يعتريها الغمّ والكدر ويُقبل عليها صواحبها يعزّينها بكلام رقيق فيقلن لها: « الحمد لله على سلامتكِ وقيامكِ بالخير. التي تأتي بالبنت تأتي بالصبيّ (اللي تجيب البنت تجيب الصبيّ) الله يخلّي لها اباها (بيّها) » واذا كانت المولودة بكرًا ذكّروها بالمثل: « من اسعدها زمانُها جاءت ببناتها قبل صبيانها ». او قالوا: « هنيئًا لكِ (نيّالك) جاءتكِ (اجاكِ) بنتٌ تخدمكِ فالبنت خلقة الله

والصبيّ خلقة الله » . اما اذا كان المولود غلاماً فحدّث بسرور اهلهِ وأدعية الصواحب ولا حرَج

واعتبار مقام الصبيان على البنات امرٌ طُبع عليهِ النـاس في كلّ البلاد. الّا انّ السوريين يبالغون في ذلك حتى تراهم يبخسون حقّ اولادهم الاناث وينتقصون شأنهنّ ويستندون بذلك الى انّ الولد يحيي اسم ابيهِ ويقوم مقامهُ ويخلفهُ بينما تترك البنت بيت ابيها وتصير لبعلها امرُها منوطٌ بامرهِ تشرّفهُ فهي بشرفها وتُلحق بهِ عارها (١. وسُئل بعض اللبنانيين: هل من رحِم بينك وبين فلان. فأجاب ليس بيننا قرابة ولا تجمعنا دنيا ولا سلالة ولكن بيننا آصرة من جهة النساء. فقيل لهُ: إذن لا تعتبر هذه القرابة وتردري بجنس النساء. قال: لا ولكن القرابة من جهتهنّ ليست قرابةً والأسرات تنتسب الى الرجل (٢

ومن احتجاج اللبنانيين على البنات انّهنّ يكلّفنَ اهلهنّ النفقات الطائلة في سبيل تهذيبهنّ وكسوتهنّ وزواجهنّ. وقيل لبعضهم: ما لك تفضّل اولادك على بناتك. فاجاب: « ألا تعرف المثل الدارج البنات همُّهنّ للممات فسواء تزوّجت البنت او لم تتزوّج اتاك من قبلها الهمّ والغمّ فالاولاد يعيّرون البيت والجواري يهدمنهُ تلك غريزة في طباعهنّ لا تغيرها الايّام ولا يلاشيها التهذيب. فترى الغلام اذا ترعرع ورام اللعب اخذ الحجارة ليبني لهُ بيتاً والبنت لا تفكّر سوى في بعلها. فتتخذ لها العروسةَ تدعوها العَرُوس (٣ فتمزّق الخرق وتخيطها اثواباً لتكسو العروس وتبدأ على هذا النمط بخراب بيت ابويها غير آسفةٍ عليهِ وهي فيهِ فكيف تأسف على خرابهِ اذا تركتهُ وصارت الى رجلها فبغضاً بالبنت كان عرب الجاهليّة يئدونها (٤ »

---

١) وعلى هذا المنوال يدعو الفرنج المرأة المتزوجة باسم بعلها (Madame une telle) بعد ان كان وقت عزوبتها تدعى باسم ابيها (Mademoiselle une telle)

٢) وذلك كان رأي الاقدمين كاليهود مثلاً فكانوا يحفظون جداول انسابهم من جهة الذكور فقط (راجع متّى ١ ولوقا ٣). وكان اليونان يعتبرون الرجل الذي لا يلد سوى الاناث كانهُ لم يخلف نسلاً البتّة

٣) والفرنج يدعوها poupée

٤) في هذا القول غلوٌّ فانّ وأدَ البنات اي دفنهنّ أحياء لم يجرِ عليهِ الّا بعض احلاف العرب قبل الاسلام مسَّن طبع الله على قلوبهم فسُلبوا كل شعائر الانسانيّة